

## مَهْمَاتٌ مَشْبُوهَةٌ فِي الدِّيَارِ الْمُقَدَّسَةِ (٢)

حسن السعيد

حينما شرع الغرب حركته لوعي الذات، عبر اكتشافه لشروط تكوينها الداخلية، ولتتمخض عما يُعرف بـ «النهضة الأوروبية»... كان هناك ثمّة حركة دائبة لاكتشاف الآخر (الخصم الأكبر)، بغية السيطرة عليه أحياناً، والتلاعب به، بل حتى ضمه وتدميره.

ولم يكن هذا «الآخر» سوى الشرق، الذي أصبح منذ القدم، وبخاصة المشرق الاسلامي معروفاً في الغرب بوصفه نقيض الغرب المتم له<sup>(١)</sup>.

هناك إذن رؤية فكرية قد تهيأت خاصة خلال حقبة المواجهة، وتحديدًا في القرن الثاني عشر، ثم توسّعت وتدققت في القرن الثالث عشر والرابع عشر؛ لتمتد حتى القرن الثامن عشر، وحتى العصر الاستعماري<sup>(٢)</sup>، لتتكسّر وتتراكم باطراد حتى تستوطن اللاوعي الغربي، وكأنها حقائق مسلّمة.

وفي القرون اللاحقة، وبخاصة في القرن السادس عشر، الذي شهد ظهور مذهب التجارة في أوروبا الغربية (المتمدنة) و(المتفوقة) و(العقلانية) والتي عدلت

من طبيعة مواجهتها مع «الطرف الآخر»، (المتوحّش) و(المتخلّف) و(الأدنى) منزلة، أُختزل ثراء الحضارة الإسلامية إلى صورة «وضيعة»، وذلك لتبرير الدوافع السياسية والاقتصادية وخدمتها. وبدأ أوروبا الغربيّة، التي لم تعد في حالة دفاع ضد التهديد الإسلامي - على الأقل ليس إلى الدرجة التي سادت خلال العصور الوسطى - بدأت تهتم اهتماماً من نوع جديد بالشرق، وقد أوحى بهذا الاهتمام الروحية الجديدة الناشئة عن مذهب التجارة من جهة، والتنافس السياسي والاقتصادي في الداخل من جهة أُخرى»<sup>(٣)</sup>.

ومع أنّ الاهتمام الأوروبي، ثم الأمريكي، بالشرق كان سياسياً تبعاً لبعض المسارد التاريخية الواضحة التي أوردها «ادوارد سعيد» في كتابه «الاستشراق»، لكن الثقافة كانت هي التي خلقت ذلك الاهتمام، والتي فعلت بحبوية ديناميكية جنباً إلى جنب مع المعقلات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية<sup>(٤)</sup>...

وإلى جانب هذه التطورات، بدأت مجموعات من التجار والرحالة بالوصول كذلك إلى الشرق لأغراض مختلفة، إذ كان بعضهم مرسلات دبلوماسية أو تجارية، وبعضهم من المغامرين أو من المبشرين بدين آخر، وبينما كان بعض الرحالة والتجار يختلقون الأوهام حول العرب، وهي أوهام سادت في بواكير القرن السابع عشر، كان العلماء منهمكين كذلك في دراسة الأدب والفكر العربيين وترجمتهما إلى الانكليزية... وعلى الرغم من أهمية تلك الدراسات العربية، فإن الاتجاهات الهجومية القديمة - الجديدة نحو الإسلام قد طغت على أكثر أعمالهم<sup>(٥)</sup>. وليس من شك، أن الإسلام لم يصبح رمزاً للرعب، والدمار، والشيطاني، وأفواج من البرابرة الممقوتين، بصورة اعتباطية. فبالنسبة لأوروبا، كان الإسلام رجّة مأساوية دائمة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان «الخطر العثماني» متربصاً بأوروبا ممثلاً بالنسبة للحضارة المسيحية كلها تهديداً دائماً، ومع مرور الزمن امتصت الحضارة الأوروبية هذا الخطر وأحداثه العظيمة، وخبراته الموروثة،

وشخصياته، وفضائله، وروائله وحوادثه شيئاً منسوجاً في لحمة الحياة الأوروبية<sup>(٦)</sup>.

وهكذا استقرت صورة الاسلام في الوجدان الشعبي، وظل يُنظر إليه على أنه لا شيء أكثر من ضلالة - أو بدعة - من المسيحية، وكان يُقال عنه أنه «دين السيف»، ويُعبّر عنه باستهزاء بـ «الدين المحمدي» أو (المحمدية). والمسلمون أنفسهم أيضاً لم يسلموا من سخط المسيحيين في العصور الوسطى، وقد سمّوهم بالكافرين والوثنيين والأعراب والمحمديين<sup>(٧)</sup>.

وقد أدخل رحالة القرن السابع عشر أيضاً صوراً أخرى عن المسلمين تتعلق بالقرصنة والرق. وقد راجت هذه الصورة شعبياً، من جرّاء كتاب ألفه «جوزيف بيتز»، وصف فيه أسره من قبل قراصنة جزائريين في ١٦٧٨، بينما كان هو ورفاقه يبحرون في الساحل الجزائري<sup>(٨)</sup> فمن هو «بيتز»؟ وما هي حكايته؟

### جوزيف بيتز:

وجوزيف بيتز هو شاب انكليزي يافع من أهالي أوكسفورد، وقصته طريفة وغير عادية. فقد كان هذا البريطاني - الذي ولد في جنوب غربي البلاد - قد ورت تعلقاً شديداً بالبحر، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره التحق بسفينة كانت متوجهة إلى أمريكا عام ١٦٧٨. وفي طريق العودة، على مقربة من الشواطئ الإسبانية، هاجم قراصنة جزائريون السفينة وأسروا أعضاء الطاقم ونقلوهم إلى العاصمة الجزائرية، حيث بيعوا في السوق كعبيد. وكتب «بيتز» عن تلك المرحلة: «اشتراني رجل عاملني بقسوة فائقة، وعلى رغم من أن الجزائريين لم يكثرثوا أبداً بديانة عبيدهم، إلا أن معلمي كان يضربني باستمرار ليغيرني على تغيير ديني»<sup>(٩)</sup>.

ونظراً لأن «بيتز» كان يجيد التكلم بالعربية والتركية فقد أتقن التعامل الإسلامية أكثر من غيره. وكان صاحبه، النقيب في خيالة الجيش الجزائري،

رجلاً مسرفاً منغمساً في الدعارة والفجور، على ما يقول «بيتز»، فصمم على أن يكون سبباً في اعتناق مملوكه الانكليزي الديانة الإسلامية تكفيراً عن آثامه وخطاياها. فاستعمل الضرب والشدة معه حتى نطق بالشهادة، لكنه بقي خلال وقته كلّه الذي قضاه في بلاد الاسلام والمسلمين يعبر عن سخطه ودخيلة نفسه المجبولة على المسيحية في شتى الظروف والمناسبات<sup>(١٠)</sup>.

وبعد فترة، بيع «بيتز» إلى رجل آخر في الجزائر، قدمه هديّة إلى أخيه في تونس... فمكث هناك ٣٠ يوماً، تعرّف خلالها إلى القنصل البريطاني الذي وعد بمساعدته، وبعد أن قرر معلمه أنه لم يعد في حاجة إليه، أُعيد «بيتز» إلى الجزائر، على رغم من أن القنصل البريطاني وتاجرين بريطانيين حاولوا شراء حريته، وقدموا ٣٠٠ دولار إلى صاحبه. إلا أن التونسي أصّر على مبلغ ٥٠٠ دولار استحال على البريطانيين جمعه.

عندما وصل «بيتز» إلى الجزائر وعلم أنه سيردّ إلى معلمه الأول انهار بالبكاء. كانت حياته، في تلك الفترة، صعبة للغاية إلا أنه مضى وقتاً طويلاً يتقن اللغتين العربية والتركية... وصار يلجأ في ساعات فراغه إلى المساجد، يدوّن الملاحظات الدقيقة حول المراسم المحيطة به، والصلوات، وكلمات الإمام، وتعاليم القرآن. وتقول زهرة فريث وفيكتور وينستون في كتابهما: «مستكشفون في الجزيرة العربية» عن بيتز: «نظراً إلى أحداثه سنّه، وعلى رغم من أنه أُجبر على تغيير دينه، إلا أن «بيتز» حاول جدياً فهم العقيدة وتقديمها بموضوعيّة»<sup>(١١)</sup>.

على أن هذه الأحكام بحاجة إلى اثباتات، لذا فإنها لا تعدو كونها ادعاءات. ومما يدل على ذلك أن الرحالة بورتون المعروف بانحيازه الواضح إلى رسالة الرجل الأبيض، والى بريطانيته خاصة، ورغم ذلك اعترف بأن كتابة بيتز تتصف بالتعصب الأعمى رغم خلوها من الخرافات أو الأشياء التي لا تُصدّق<sup>(١٢)</sup>.  
وكمثال على مدى تحامل بيتز على المسلمين الصاقيه بهم العديد من الرذائل،

والتي ساهم هو نفسه في ترويجها عن المسلمين في الأوساط الغربية . ثم تغاضيه عن الأسلوب المتساح معه ، من قبل الآخرين ، خاصة بعدما تغيّرت حاله أثر اعدام معلمه الأول ، لمشاركته في تنظيم تمرد ضد الحاكم ، فباعته زوجة هذا الأخير إلى شخص جديد متقدم في السن ، عامله بلطف وطلب منه أن يرافقه في رحلة الحج إلى مكة المكرمة .

### الرحلة إلى الحج

قام بيتز برفقة سيده بالحج إلى مكة والمدينة ، أواخر القرن السابع عشر<sup>(١٣)</sup> ثم تمكّن من الفرار ، ونشر قصة رحلته تلك في بريطانيا سنة ١٧٠٤م ، وهي قصة يصحح بها بعض الأخطاء والمبالغات الموجودة في الكتب المعاصرة له ، وأروع ما في الرحلة وصفه للقافلة واعدادها<sup>(١٤)</sup> .

واجتذب الكتاب وعنوانه «وصف أمين لديانة وأخلاق المحمدين» اهتماماً كبيراً ، لأن كاتبه عبد مسيحي ، وفيه يعزّز روايات العبيد المسيحيين في الدول (البربرية) ، الجزائر وتونس وطرابلس ، فضلاً عن ذلك فإن أهميته تعود أيضاً إلى أن «بيتز» كان من أوائل الانكليز الذين دخلوا شبه الجزيرة العربية ووصفوا شعبها ، والأماكن المقدسة ، ومراسم الحج وشعائر العبادة في مكة ، وقد زار بيتز كذلك قبر النبي ﷺ ، ونفى حكاية أن القبر معلق في الهواء ، بفعل قوّة أحجار مغناطيسية<sup>(١٥)</sup> .

بدأت رحلة بيتز وسيده بمصر ، وعندما وصلا إلى الاسكندرية أُصيب المعلم بمرض شديد حتى ظنّ أن نهايته اقتربت ، فأعطى الشاب البريطاني جزاماً فيه كيس من الذهب ورسالة كانت ستسلم إليه في مكة المكرمة ، يعلن فيها صاحبه عن اطلاق سراحه . إلا أن الرجل استعاد عافيته وظل «بيتز» في خدمته ، وتابعا طريقهما إلى القاهرة حيث مكثا فترة من الزمن لتجميع المواد اللازمة للمرحلة الثانية من الرحلة . وكان «بيتز» يدوّن ملاحظاته عن المدينة وأهلها<sup>(١٦)</sup> .

على أن «بيتز» في وصفه لمصر وخليط السكان فيها (من أتراك ويهود ويونانيين وأقباط) كان أول من روج شعبياً صورة جديداً جداً، ألا وهي صورة البغاء... وعلى أيّة حال، فإن تجارب بيتز وتصويره للعرب كقراصنة وشحاذين ولصوص ومشتغلين بتجارة الرقيق والبغاء كانت رائجة في انكلترا في نهاية القرن السابع عشر. ولا بدّ من التأكيد هنا أن إشارات «بيتز» إلى العرب لم تكن واضحة جداً أبداً؛ فهو يدعوهم أحياناً جزائريين أو بربراً أو عرباً، ويشير إليهم أحياناً كأتراك ومصريين. وأحسن دليل على عدم وضوحه وصفه المشوّش للبغاء<sup>(١٧)</sup>.

يمضي «بيتز» في وصف قافلة الحجاج، وهو ينتقل بمعيّة سيده من القاهرة إلى السويس، ومنها أبحر إلى مرفأ صغير بين ينبع وجدة، واستخدما الجمال مجدداً للوصول إلى مكّة المكرمة. ودامت اقامتها هناك شهرين، وكان «بيتز» يرافق معلمه كل يوم، في جولة حول المدينة، ويسجّل في ذهنه صور المباني وعادات الأهالي والطقوس الدينية. وكان الجهد الذي بذله لتسجيل كلّ هذه التفاصيل مميّزاً، وكذلك عندما دوّنها في كتابه الشهير<sup>(١٨)</sup>:

#### مكّة كما يصفها بيتز

كتب جوزيف بيتز مذكرات تفصيلية عن سفرته إلى مكّة، وصف فيها البلدة وأماكنها، كما وصف المسجد الحرام والكعبة ومناسك الحج كلها، وليس من الممكن بطبيعة الحال أن نورد هنا جميع ما كتب عن ذلك، وإنما نورد نماذج منتخبة ممّا كتب. فهو يقول عن أول وصوله إلى مكّة:

«... وحالما وصلنا إلى مكّة المكرمة سار بنا الدليل في الشارع الكبير الذي يقع في وسطها، ويؤدّي إلى المسجد الحرام (يسميه المعبد)، وبعد أن أخذنا ذلولنا، كان أول ما أخذنا الدليل إليه البركة؛ لنقوم بعملية الوضوء، وعند ذلك جاء بنا إلى الحرم الشريف فخلعنا أحذيتنا، وتركناها عند الكيشوان، ثم دخلنا من باب السلام. وبعد أن سرنا خطوات معدودة، وقف بنا الدليل ورفع يده للدعاء، وأخذ

يرتل بعض الحمل الدينية، فقلده الحجاج وكرروا ما كان يقوله. وما ان وقع نظر الحجاج على بيت الله الحرام (يقصد الكعبة) في الداخل حتى انهمرت الدموع في أعينهم بغزارة، وقادنا الدليل إليه في الوقت الذي كنا ما نزال نكرر ما يقول من الأدعية والحمل الدينية. وقد أعقبنا ذلك بالطواف سبع مرّات من حوله، وبالصلاة ركعتين من بعد ذلك، وبعد الانتهاء من كل هذا أخذنا الدليل إلى الشارع من جديد حيث كان علينا أن نهول أو نركض من مكان في الشارع إلى آخر (بين الصفا والمروة) فنقطع مسافة لا تزيد على رمية سهم. وإني اعترف بأنني لم يكن بوسعي سوى أن أعجب بهؤلاء المساكين الذين يخلصون إلى آخر حد في تأدية مثل هذه (الخرافات)، وأقدّر شعورهم حينما ألاحظ مقدار ما ينتابهم من الرهبة والارتعاش. والحق أنني لم أتمالك نفسي من البكاء وإرسال الدموع حينما رأيت حماسهم المتناهية في العقيدة، برغم ما فيها من وثنية (كذا)، ومع كونهم يؤدونها على العمياء<sup>(١٩)</sup>....

أمّا فيما يتعلّق بالحجر الأسود، فلقد كانت لديه فكرة غريبة عنه، مع أنه يبدو وقد طاف حول الكعبة، إذ يقول: «هنالك في إحدى زوايا هذا البيت حجر أسود تُبَّت في إطار من الفضة، وكلما اقترب أحد من الزاوية، عليه أن يقبل ذلك الحجر، ويقولون: إن هذا الحجر كان لونه أبيض سابقاً، ولكنه بسبب ذنوب وخطايا الحجاج، الذين يقبلونه تحوّل لونه إلى الأسود». ثم يقول: «إنه لم يعتقد بصحة ذلك التحذير الذي وُجّه إليه. وهو أن الإنسان ربما أصيب بالعمى إذا نظر حوله وهو في البيت الحرام، وهو يقول: إن هذه القصة غير صحيحة، ثم قرر أن ينظر حوله، ولكنه لم يحدّق النظر كثيراً، بل كان يُلتي نظرة من آن لآخر<sup>(٢٠)</sup>.

ويصف «بيتز» مكة فيقول: إنها بلدة تقع في وادٍ غير ذي زرع، أو في وسط عدّة جبال صغيرة. وهي غير عصيمة؛ لأنها ليس لها أسوار ولا أبواب... على أن البلدة محاطة لعدّة أميال بآلاف عدّة من التلال والجبال الصغيرة، التي تتقارب

بعضها إلى بعض حد التقارب. وكلها أحجار صخرية مائلة إلى السواد في لونها... وهناك فوق قمة أحدها غار مشهور يسمى غار حرّاء، كان النبي محمد يعتزل فيه فيستغرق في عبادته وتأملاته وصومه. وقد ذهبت إليه فلم أجد أن يد التجميل قد مسّته مطلقاً، فاعجبت جد الاعجاب بذلك (٢١).

ثم يقدّم لنا «بيتز» انطباعاته حول مكة، فيقول: إنه لم يجد فيها شيئاً مثيراً أو مبهجاً. ولم يعجبه سكان مكة أيضاً (٢٢) فهم فقراء ميالون إلى النحافة والهزال، وسم في لونها (٢٣) ولكنه قضى وقتاً في وصفهم ووصف الحجاج، ثم استرعى انتباهه أولئك المتصوفون (الدرأويش) الذين يعيشون حياة الزهد والتبسك ويسافرون من أدنى البلاد إلى أقصاها كالرهبان المتسولين، وهم يعيشون على صدقات الآخرين، يلبس الواحد منهم قفطاناً أبيض طويلاً وقبعة طويلة بيضاء (مثل بعض فئات الرهبان المسيحيين) وعلى ظهر الواحد منهم جلد ضأن أو ماعز يرقد عليه، وفي يده يحمل عصا طويلة. وهناك كثير من الأتراك يتبعون مثل هذه الحياة (٢٤).

ويقول «بيتز» كذلك: إن مكة كان فيها ماء كثير، لكنها خالية من العشب والزرع إلا في بعض الأماكن. على أنه وجد فيها عدّة أنواع من الفواكه ميسورة للناس مثل العنب والبطيخ والرقى والخيار والقرع وما أشبه. وهذه يؤتى بها في العادة من مكان يقع على مسيرة يومين أو ثلاثة، يسمى «حباش» (?) ولعله يقصد بذلك الطائف.

ثم يذكر خلال وصفه للحج ومناسكه أن سلطان مكة (أي الشريف) الذي ينحدر من نسل النبي محمد ﷺ لا يعتقد بأن غيره جدير بتنظيف البيت وتطهيره، ولذلك يقوم هو شخصياً والاثيرون عنده من رجاله بغسله بماء زمزم المقدس، ثم بالماء المطيب المعطر. وحينما يقومون بهذه العملية ترفع السلام التي تؤدّى إلى بيت الله، ولذلك يحتشد الناس تحت الباب ليدفع ماء الغسيل عليهم حتى يتبللوا به



من الرأس إلى القدم. ثم تقطع المكائس التي يكنس بها البيت المقدس قطعاً صغيرة، وترمى عليهم فيتلاقفونها، ومن يفز بقطعة منها يحتفظ بها كأثر مقدس لديه (?). ويتطرق بعد ذلك إلى ذكر الكسوة ووصفها كالمعتاد (٢٥).

وأخيراً يصدر حكمه النهائي على تلك المدينة وعلى شعبها فيقول: «مع أن هذا البلد (مكة) يعتبر من الأماكن المقدسة، إلا أنني لا أعتبره مقدساً لكثرة ما فيه من الفسق والانغماس في الملذات. أمّا بالنسبة للأخلاق فهو مساوٍ للقاهرة العظيمة، فهم من الممكن أن يسرقوا الحرم الشريف نفسه (٢٦). وعلى هذا المنوال، ورغم تظاهره بالأمانة العلمية، فإنه يطلق تعميّاته الواسعة، التي لا تخلو من الدس والعشوائية.

#### المدينة المنورة

وبعد أن غادر بيتز مكة المكرمة، طفق يصف تكوين القافلة المتوجهة صوب المدينة المنورة، مع تركيز على بعض التفصيلات التي لا تخلو من تشويه، وبخاصة حينما يتحدث عن الأخطار التي واجهها الحجاج، بعد دخول الصحراء، وما يتعرضون له من قطاع الطرق البدو...

ثم يقول: «وبعد اليوم العاشر من هذه الرحلة اليسيرة من مكة ندخل إلى المدينة المنورة. ولكن هذه المدينة صغيرة وفقيرة، ومع ذلك فهي محاطة بسور، وفيها مسجد عظيم، ولكنه ليس عظيماً كمسجد مكة» (٢٧).

وعن سور المدينة المنورة ومسجدها يعتقد «بيتز» أن هذا السور قد بُني ما بين سنتي ١٥٠٣ - ١٦٨٠م. وفي زاوية من زوايا المسجد بناء يشغل خمس عشرة خطوة مربعة، فيه شبابيك كبيرة مشبكة بالنحاس الأصفر. وفي داخله بعض المصاييح المعلقة والأعلاق النفيسة. وليس هناك ذلك العدد الكبير من المصاييح الذي كتب بعضهم يقول: إنها تبلغ ثلاثة آلاف في عددها. وفي وسط هذا المكان يوجد قبر محمد، وهنا يتجاوز على النبي الأعظم ويسميه (دعيّاً). ثم يصف

الستائر، ويشير إلى ما كان يتردد في هذا الشأن من الخرافة، التي تقول: إن الحدث الطاهر يشاهد وهو في تابوته معلقاً بين السقف والأرض. ويشير إلى البقعة المعدّة للمسيح عيسى بن مريم، ثم يقول: إن المدينة تزوّد بجميع ما تحتاجه من الحبشة الكائنة في الجهة المقابلة من البحر الأحمر<sup>(٢٨)</sup>.

بقي أن نعلم، أن «جوزيف بيتز» قد اعتقه سيّده الجزائري وأخلى سبيله، وبذا وفي بوعده وأطلق سراحه، عند نهاية زيارتهما لمكّة المكرّمة<sup>(٢٩)</sup> لكنه بقي يعيش مع سيّده ويخدمه لقاء اجور حتى عاد إلى الجزائر.

### الهروب... والعودة

أمضى «بيتز» بعض الوقت في الجزائر، وعند ذاك أخذ يفكر في الهرب والعودة إلى بلاده الأصليّة. فاستطاع التسلّل إلى سفينة من السفن المتوجهة إلى استانبول، بعد أن أخذ معه كتاب توصية من المستر «بيكر» القنصل الانكليزي في الجزائر يومذاك إلى قنصل انكلترا في أزمير المستر «ري». ومع أن الحنين إلى الجزائر قد عاوده في أزمير، وصار يفكر في العودة واستئناف الحياة فيها كرجل مسلم، فقد استقلّ باخرة فرنسية متوجهة إلى ليغهورن في ايطاليا، بعد أن دفع ثمن التذكرة عنه تاجر انكليزي كان يقيم في أزمير يدعى المستر «أيليوت». وممّا يدلّ على مقدار تعصّب «بيتز» للمسيحية واحتفاظه بعقيدته فيها، رغم جميع ما أصابه من تقلبات، أنه ما كادت رجلاه تطأ الأرض في ليغهورن حتى خرّ ساجداً عليها وقبلها عدّة مرّات، وهو يشكر الله على عودته إلى ديار النصرانية، بعد هذه الغيبة الطويلة عنها<sup>(٣٠)</sup> ثم عاد إلى موطنه. ولما وصل إلى لندن، ومنها إلى منزل والده في جنوبي غربي البلاد، بعد غياب دام خمس عشرة سنة، كان عمره ٣١ عاماً<sup>(٣١)</sup>.

وحالما استقرّ هناك، وقع تحت قبضة رجال الصحافة، بيد أنه كان محظوظاً - كما يقول - لأن أصدقاءه ومعارفه أنقذوه من هذه الورطة. وبعد ذلك استقرّ في مدينة اكستر. وفي عام ١٧٠٤م نشر قصته وما رآه

ومارسه من تجارب، ولكن هذه القصص لم تصبح جزءاً من التراث الشعبي في الغرب بالنسبة إلى بلاد العرب، وقد نسيها معظم الخبراء<sup>(٣٢)</sup> فقد أصبحت معرفة أحوال تلك البلاد متوافرة، وطغت على تلك القصص، ومع ذلك فلا شك في أن صراحة تلك المعلومات ساعدت على تفهم الشعب البريطاني والغرب لتلك الشؤون العربيّة، التي كانت تتسم بها تلك البلاد في تلك الأيام. فالمدن والقفار التي وصفها لم يكن من السهل للرحالة الأوروبي العادي الوصول إليها. إذ كانت تلك المناطق أماكن مغلقة بالنسبة للغرب بسبب (التعصّب) الديني - على حد زعم الكاتب الغربي بيتز برينت - وسلطة الامبراطورية العثمانية، ولهذا نرى أن قصة «جوزيف بيتز» البسيطة الصريحة يجب أن تكون قد ظهرت ولمعت بضوء سحري لا يقل روعة عن قصص مانديفيل Mandeille الخرافيّة عن البلدان التي تحكمها الوحوش.

ما تجدر الإشارة إليه أن الرحالة البريطاني «رتشارد بورتون» قد أعاد نشر مذكرات بيتز هذا ضمن ملاحق رحلته المشهوره: «الحج إلى المدينة ومكة» (١٨٥٥ - ١٨٥٦)<sup>(٣٣)</sup>.

وتكمن أهميّة رحلة بيتز في أنها أول محاولة قام بها انكليزي، تتضمن وصفاً مفصلاً عن مدينة مكة المكرمة وموسم الحج، وعلى وصف أيضاً لمدينة الجزائر وضواحيها ومديني الاسكندرية والقاهرة.

هل كانت هناك مهمّة سرّية؟

ومهما قيل حول الرحلة من إطراء، وخاصة في الغرب وفي الأجواء المتأثرة به<sup>(٣٤)</sup>، فإن ذلك لا يقلل من أهمية علامات الاستفهام المثارة حول الكثير ممّا ورد في الرحلة، من معلومات أو انطباعات. فإضافة إلى ما تقدّم من تحفّظات، وردت في ثنايا الحديث، لا نعدم من يشكك في صحة بعض المعلومات التي ذكرها «بيتز»، إن لم يكذبها، وهذا الباحث البريطاني «بيتز برينت» يؤكّد أن بعضاً من كلام

«بيتز» هو «قول مبني على الرغبة لا على الحقيقة، إن لم يكن كاذباً زائفاً ريبائياً» (٣٥).

وعلى طريقة: «شهد شاهد من أهلها»، فإن انطباعاً سلبياً يقفز لدى كل منصف بيتغي الحقيقة والموضوعية، حينما يطالعه عنوان كتاب بيتز: «وصف أمين لديانة وأخلاق المحمدين». فالأمانة قد خانت هذا الأوروبي المسكون بهواجس العبودية والأسر، في الكثير من محطات الكتاب، ثم إن اطلاق اسم المحمدين على المسلمين هو في الواقع تسمية خاطئة وتشبيه خاطئ بالمسيحيين والمسيحية. إن النبي محمد ﷺ لم يزعم لنفسه الألوهية بل ولا حتى موهبة العلم بالغيب أو صنع المعجزات. على العكس فقد جزم طيلة حياته وباطراد أنه إنسان فان. لذا فإن اسم الدين بالنسبة لمعتنقيه هو الإسلام لا المحمدية، والمؤمن برسالة محمد ﷺ لا يسمي نفسه محمدياً بل مسلماً (٣٦).

وفي هذا السياق، فان من الواضح - والفاضح معاً - انتفاء آراء بيتز إلى عالم التحيز، الذي كان سائداً، وما يزال، في الوسط الغربي حيال الشرق، والمشرق الاسلامي بالذات، وعلى حد قول ادوارد سعيد: كان كل رحالة أو مقيم أوروبي في الشرق، وما يزال، مضطراً إلى أن يحمي نفسه من تأثيرات الشرق المقلقة (٣٧).

وهذا ما يدعونا إلى طرح تساؤل خطير: هل كان الكتاب من وحي أفكار بيتز الخاصة؟ وتتأني أهمية هذا التساؤل حينما نعلم أن «بيتز» عاش في أسر العبودية منذ كان عمره ١٥ سنة، فكيف تسنى له تثقيف نفسه واعدادها، خاصة وأنه عانى حقبة مريرة من المعاناة والاضطهاد من سيده الأول الذي اتسم بالفظاظة والعريضة، كما يعترف «بيتز» نفسه...؟!

وبعبارة أخرى؛ لو تلقى «بيتز»، كغيره من معظم الرحالة الذين جابوا المشرق الاسلامي، الحد الأدنى من أسلحة المعرفة المطلوبة لكل ذي مهمة خطيرة، كاختراق الديار المقدسة في الحجاز، لكانت محاولته أمراً طبيعياً وغير

ملفت للانتباه، باعتبارها تأتي ضمن سياقاتها الموضوعية، أمّا أن يُقدم شاب لم يتلقَ أيّ نصيب في مدارج المعرفة، وكلّ مالديه من زاد أنه كان مولعاً بالمغامرة والأسفار فقط، فكيف أقدم على تسجيل وقائع تجربته، حتى إنه «لم ينسَ أي شيء، في تلك الظروف التي أحاطت به، فهو يتذكر الحجوم والأطوال والأرقام وعدد الأبواب والبوابات ويلاحظ الدوامات والجريان أثناء الطواف حول الكعبة» كما يقول «برينت»؟ (٣٨).

إن قراءة واعية لما بين السطور المتقدمة تقودنا إلى التوجّس من هذا الاهتمام الدقيق الذي أبداه «بيتز»، ممّا يشير إلى أن هناك احتمالاً كبيراً وراجحاً بوجود مهمّة مكلف بها من جهة معينة، تحرص على سبر غور الديار المقدّسة التي كانت مغلقة بوجه دوائر الغرب.

ولا يطول بنا المقام، لكي نوجه أصابع الاتهام صوب القنصل البريطاني في الجزائر «بيكر» الذي ساهم في عملية تهريبه إلى أوروبا عبر أزمير. وهذا التكليف لم يكن مستغرباً أبداً، وهناك عشرات الأدلّة على شواهد مماثلة.

وما يعزّز هذا التشكيك أن «بيتز» نفسه قد أشار في مقدمة رحلته إلى ملاحظة، وكأنه يدفع تهمة عنه إذ يقول: «قد يظهر للبعض أنني وقح في وضع هذا الكتاب الصغير.. وأنا لا أدعي أن لدي القدرات المطلوبة من شخص لكتابة تاريخ كهذا»، ولكنه يضيف قائلاً: إنه «يملك أفضل المؤهلات فيما يتعلّق بالحقيقة» (٣٩).

ولسنا ندري ما هي تلك المؤهلات التي كان يتمتع بها «بيتز»، اللهم إلا أنه ظل وقيّاً حتى آخر لحظة إلى نصرانيته وبريطانيته، وربما يشير، من طرف خفي، إلى مهمته الموكولة إليه، ولم يكن بيتز بدعاً في هذا الأمر بل هو الدفعة الثابته التي طبعت جلّ الجهود الغربية، إن لم يكن كلها قاطبة، في هذا الاتجاه. بما فيها حركة الاستشراق التي تباهت ردهاً طويلاً من الزمن بالعلميّة المجردة والمنهجية العارية. وهذا ما دعا ادوارد سعيد إلى توجيه الاتهام القوي إلى الاستشراق، ولم يكتف

بالتأكيد على وصف المستشرق بأنه وكيل لحكومته ليس واضح الدلالة فحسب، بل هو مذهل كذلك: «يمكن اعتبار المستشرق كوكيل خاص لدولة غربيّة عند محاولتها تطبيق سياسة معيّنة حيال المشرق. إنّ أي رحالة أوروبي متعلم (أو ليس كذلك تماماً) يتجوّل في المشرق يشعر بأنه رجل غربي نموذجي قد سبر غور ما هو غامض من الأمور»<sup>(٤٠)</sup>.

على أنه لا يمكن فهم دور بيتز وأضرابه فهماً واضحاً من دون فهم خلفيّة المرحلة أو طبيعة الظرف التي كان يتحرّك فيها أو اللاحقة لها، ومع أن هذا خارج نطاق البحث، إلا أن الإشارة السريعة إليه أمر ذو أهمية، خاصة فيما يتعلق بقضية التوغّل الغربي في ديار المشرق الإسلامي، وداخل شبه الجزيرة العربيّة تحديداً.

#### ما بعد بيتز

بعد «بيتز» قامت عدّة بعثات بالتوغّل داخل شبه الجزيرة العربيّة، وجميعها انحصرت تقريباً في الجنوب الغربي، وأشهرها بعثة الرجلين الفرنسيين «وي لاجر بلودير» و«باربير». ولكن بعد مغادرتها المنطقة أتت فترة يمكننا أن نسميها نهاية تلك الفترة الطوعية للاستكشافات في شبه الجزيرة العربيّة. وباستثناء «فارتيا»... لم يُعرف عن ذهاب أي شخص إلى بلاد العرب رغبةً في معرفة شيء عن تلك المنطقة، أو ذلك الشعب، فقد كانوا يأتون بالقوة كعبيد أو عن طريق الدبلوماسية أو التجارة. ولم يحدث أن اهتموا بما حولهم وكتبوا شيئاً عمّاراً، ذلك لأن اهتماماتهم العامة بما حولهم لم تكن إلا عملاً إضافياً يزيد على نواياهم الخاصة، فلم يكن سفرهم إلى تلك البلاد لتحليل المجتمع الذي يسكنها، ولكن بعد ذلك حدث التغيير، ابتداءً من منتصف القرن الثامن عشر فصاعداً، وعلى الأقل حتى الحرب العالمية الأولى، أصبح جميع أولئك الذين كتبوا بشكل فعّال عن جزيرة العرب يفعلون ذلك لإعطاء وصف لها، لأن هذا الوصف من عملهم الخاص<sup>(٤١)</sup>. وعليه، فإننا نستطيع القول أن حقبة كلّ من «فارتيا» و«بيتز» كانت تمثّل

مرحلة التوثب الاستعماري، لتلحقها بعد فترة وجيزة مرحلة التوسّع الاستعماري، التي حددها «برينت» ما بين منتصف القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الأولى.

والدليل على ذلك أن البعثات الغربية قد تقاطرت على المنطقة بشكل مكثف ومثير للدهشة. وإلى هذا أشار المستر هوغارث، حينما لخص أسماء الأوروبيين الذين زاروا الأراضي المقدسة إذ قال: «إن قائمة الأوروبيين الذين زاروا مكة هي قائمة طويلة في الحقيقة. فمنهم الايطاليون مثل: فارتيا وفيناتي، والألمان مثل: فايلدوستينز وفون مالتزان، والانكليز مثل: بيتز وبورتون وكين، والسويسريون مثل: بوخارت، والأسبان مثل: باديا، والسويد مثل والين، والهولنديون مثل هورغونيه، والفرنسيون مثل كوتر نلمونت.

وإلى جانب هؤلاء، هناك عدد من المحاربين والمغامرين، وقد سمع الرحالة نيبور بجراح فرنسي تمكن من الدخول إلى الأراضي المقدسة، وبرجلين انكليزيين أيضاً. وطرق سمع الرحالة «دوتي» أن عدداً من الإفرنج دخلوا إليها كذلك، وصادف هو بالذات رجلاً ايطالياً يسمي نفسه فراري كان في طريقه إلى مكة المكرمة مع قافلة الحج الايرانية. ووجد جوزيف بيتز رجلاً ايرلندياً في المدينة، كما يقول الرحالة مالتزان أن ليون روش القنصل الفرنسي في تونس حج إلى مكة وزار المدينة، وكذلك فعل رجل من البحارة الانكليز. هذا فضلاً عن عدد من الأوروبيين المشاركة مثل اليونان»<sup>(٤٢)</sup>.

ولا ريب في أن هذه القائمة للنماذج المعروفة، وما خفي أعظم، لم يكن هم أصحابها الاستجمام أو المغامرة، بل هناك مهمات خطيرة قد أوكلت إليهم، في ظل تنافسٍ محموم كانت تتسابق إليه دوائر الغرب بحثاً عن موطئ قدم في هذا الشرق، الذي أريد له أن يزرع تحت السيطرة الاستعمارية. وعلى هذا الأساس، فإن الرحالة الذي رأيناه خلال القرنين السادس عشر

والسابع عشر، قد اختفى وحلّ محله المستكشف الذي مهما بلغ به حبّ المغامرة والجرأة، إلا أنه يرى ويعدّ وصف تلك البلاد جزءاً من مهمته الأصلية، وذلك بأن يكتب وصفاً دقيقاً لما رآه ومارسه، وما قاساه أحياناً في تلك البلاد<sup>(٤٣)</sup>.

ونستطيع أن نقول بإيجاز: إنه في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، كانت قد توفرت لدى الغربيين المعلومات الأساسية عن شبه جزيرة العرب: عن المدينتين المقدستين، واليمن، والبدو.

كما أن من الواضح أن «دي فارتيا» وحده كان، حتى هذا التاريخ، هو الرائد، أما الآخرون فلم يكونوا سوى روّاد مصادفة.

ومنذ القرن الثامن عشر بدأ في تاريخ الريادة إلى شبه جزيرة العرب ما يمكن أن يسمّى بالريادة الحقيقية، بكلّ ما في الكلمة من معنى، وروّاد هذه الفترة أهدافهم متعددة متباينة، فبعضهم أغراضهم سياسية، وبعضهم الآخر هم من عشاق المغامرات<sup>(٤٤)</sup> بيد أن صراع الإرادات الذي احتدم في الشرق بشكل عنيف، منذ أو أن وطأت سنابك خيوك نابليون باحات الأزهر، قد وظّف جميع تلك الأغراض في بوتقة واحدة؛ لاخترق الشرق وتدجينه... واستلابه.

### الهوامش:

- (١) للمزيد من الاطلاع على هذه النقطة، يُراجع كتاب «الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء» لادوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط. ٢. بيروت، ١٩٨٤.
- (٢) هشام جعيط: «أوروبا والإسلام»، ترجمة طلاغتريسي، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٠.
- (٣) د. خضر حلمي ساري: «صورة العرب في الصحافة البريطانية»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص: ٢٧-٢٨.



- (٤) د. ادوارد سعيد؛ المرجع السابق: ٤٦.
- (٥) بشيء من التصرف عن كتاب «صورة العرب في الصحافة البريطانية»؛ م. س: ٢٨، ٣٠.
- (٦) الاستشراق؛ م. س: ٨٩.
- (٧) يربا براون: «نظرة عن قرب في المسيحية»، ترجمة مناف حسين الياسري، نشر توحيد، طهران، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص: ٨٦.
- (٨) صورة العرب في الصحافة البريطانية؛ م. س: ٣١.
- (٩) مقال: «سيرة «عبد اوروي» في بلاد المسلمين في القرن الثامن عشر» لرلى الزين، المنشور في صحيفة الحياة (لندن) - العدد (١٦. ١١)، الصادر بتاريخ ١١ نيسان (ابريل) ١٩٩٣ م - ١٩ شوال ١٤١٣ هـ. ومن الواضح أن ثمة سهواً قد وقع في عنوان المقال، حول التاريخ والصحيح هو «في القرن السابع عشر» وليس «الثامن عشر» كما سترى من خلال البحث.
- (١٠) جعفر الخليلي: «موسوعة العتبات المقدسة: قسم مكة» ٢: ٢٥٥ (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط. ٢، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).
- (١١) Zahra dickson Freeth and H.V.F Winstone, Explorers of Arabia from the Renaissance to the End of Victorian Era (London; Boston: Allen and Unwin; New York: Holmes and Meier, 1978).
- (١٢) موسوعة العتبات المقدسة؛ م. س: ٢٥٥.
- (١٣) لم تحدد المراجع بالضبط سنة الرحلة، ولكنها حدثت، على ما يبدو، عام ١٦٩٢ م، بدليل أنه عاد مباشرة إلى بلاده، فيما استغرقت مدة غريته عنها حوالي ١٥ سنة.
- (١٤) د. محمود السمرة: «مراجعات حول العروبة والاسلام واوروبا»، كتاب العربي (٤) الكويت، ١٩٨٤ م، ص: ١٢٠.
- (١٥) صورة العرب في الصحافة البريطانية؛ م. س: ٣١.
- (١٦) صحيفة الحياة؛ م. س.
- (١٧) صورة العرب في الصحافة البريطانية؛ م. س: ٣٢.
- (١٨) صحيفة الحياة؛ م. س.
- (١٩) موسوعة العتبات المقدسة؛ م. س: ٢٥٦.
- (٢٠) بيتر برينت: «بلاد العرب القاصية: رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب» ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة، بيروت/دمشق، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، ص: ٧٨.
- (٢١) موسوعة العتبات المقدسة؛ م. س: ٢٥٦ - ٢٥٧.
- (٢٢) بلاد العرب القاصية؛ م. س.
- (٢٣) موسوعة العتبات المقدسة؛ م. س.

- (٢٤) بلاد العرب القاصية؛ م . س .
- (٢٥) موسوعة العتبات المقدسة؛ م . س .
- (٢٦) بلاد العرب القاصية؛ م . س : ٧٩ .
- (٢٧) المرجع نفسه : ٨٠ .
- (٢٨) موسوعة العتبات المقدسة : «قسم المدينة» - ٣ : ٢٤٠ .
- (٢٩) صحيفة الحياة؛ م . س .
- (٣٠) موسوعة العتبات المقدسة - ٢ : ٢٥٥ .
- (٣١) صحيفة الحياة؛ م . س .
- (٣٢) ورغم ذلك ، فان الكتب القديمة ما تزال تثير اهتمام هواة الجمع ، وقد بيع كتاب جوزيف بيتر ، في لندن عام ١٩٩٣ ، بمبلغ وصل ٢٢٥٠ جنيه استرلينياً ، في حين قُدِّرَ ثمنه بين ٣٠٠ - ٤٠٠ جنيه استرليني ، وقد تنافست على شراء طبعته الأولى (١٧٠٤م) ثلاث مؤسسات تتعامل بالكتب القديمة ، وبعد مزادات عدّة حصلت مؤسسة «فولبوز» على الكتاب .
- (٣٣) قام برتون برحلته عام ١٨٥٣م ، وعند عودته نشر كتاباً تحت هذا العنوان :
- Barton Richard E \_ Pilgrimage to Al Madina & Meccah.
- (٣٤) للأسف ، نجد أن الكثير يأخذ كلام المستشرقين والرحالة حول الشرق أخذ المسلمات ، دون وعي لما ينطوي عليه كلامهم من دس وافتراء تارة وتشويه مقصود أحياناً أخرى .
- (٣٥) بلاد العرب القاصية؛ م . س .
- (٣٦) صورة العرب في الصحافة البريطانية؛ م . س : ٤٧ (هامش ١٠٧) .
- (٣٧) الاستشراق؛ م . س : ١٨٢ .
- (٣٨) بلاد العرب القاصية؛ م . س : ٧٩ .
- (٣٩) صحيفة الحياة؛ م . س .
- (٤٠) صورة العرب في الصحافة البريطانية؛ م . س : ٣٤ (هامش ٦٠) .
- (٤١) بلاد العرب القاصية؛ م . س : ٨١ .
- (٤٢) موسوعة العتبات المقدسة؛ ٣ : ٢٤١ .
- (٤٣) بلاد العرب القاصية : ٨١ .
- (٤٤) مراجعات حول العروبة والإسلام وأوروبا؛ م . س : ١٢٠ .